قراءة في كتاب حديث القمر للرافعي

على الرغم من الدراسات المتعددة المستفيضة لمؤلفات الرافعي تظل كتبه الوجدانية الأربعة : «حديث القمر، رسائل الأحزان، السحاب الأحمر ، أوراق الورد» بحاجة إلى دراسات وعناية خاصة، ولا سيما كتابه «حديث القمر».

وتؤلف الكتب الأربعة المذكورة وحدة متوالية فيما بينها، قد تختلف شكلا في التعبير، لكنها تدور أصلا حول محور واحد في التفكير، هو المرأة . وهكذا يمثل كتاب «حديث القمر» البداية أو الفاتحة، على حين يمثل كتاب «أوراق الورد» النهاية أو الخاتمة، كما تمثل الأزهار والأوراق والأغصان نسبة وعلاقة بجذرها . وقد حدّد الرافعي الأغراض التي وضع من أجلها كتاب «أوراق الورد» وهي تشمل الكتب الأربعة بقوله لمحب الدين الخطيب :

١ - سدّ المكان الخالي في الأدب العربي .

٢ - وضع عمل يحسم النزاع في الخلاف بين القديم والجديد .

٣ - إسقاط زعم المستشرقين وغيرهم ممن ينتقدون العربية بأنها قاصرة في الوصف والتحليل، تحليل العاطفة .

٤ - وضع قطعة فنية بليغة في البيان العربي تحفظ على نشء هذه الأيام ذوق البلاغة، فإن كتابة الجرائد أفسدت الأذواق .

٥ - تطهير فكرة الحب، والسموّ بها في نفوس الشباب، فإن الحب طور من أطوار النفس لا بدّ منه [1] .

بقلم : محمد الحسناوي
سورية

غرض الكتاب :

عقد الرافعي فصلاً في بداية الكتاب، عنوانه «غرض الكتاب» صرح فيه، ببعض ما ذكره عن كتاب أوراق الورد، فالغرض التعليمي، عبر عنه بقوله : «وأنا أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الإنشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته، ولا توضع قواعده» [٢]، أما دورانه حول المرأة، ولا سيما الحب، فكل حرف من حروفه تنطق بهذه المسألة من مثل قوله : «نشرت على خيوط القمر ليلاً من ليالي الجمال دونه شباب الشاعر الغزل، يمتد من ألحاظ فاتنته الحسناء كلما استطار في آفاقه ابتسامُها»[٣]، أما التجديد وما عبر عنه من «سدّ الفراغ» و «تطهير فكرة الحب» فغرضان من أغراض هذا البحث .

صاحبة القمر :

إذا كانت صاحبة الكتب الثلاثة، أي التي تتصل بها الأسباب هي الأديبة اللبنانية الأصل «ميّ زيادة»، فإن الكتاب الأول الذي سبق الثلاثة، فيتصل سببه بفتاة لبنانية أخرى «فقد كان له في بحمدون من لبنان والمنظر الجميل خيال مليحة ألهمته الأشعار، وساهرته الليالي . وفي ربوة من ربا الجبل الأشمّ عرف (ليلى)، وكانت أديبة شاعرة آذاه فراقها، فسكب على صفحات مجلة الزهور قصيدته (عبرات البين)، وحبها هو الذي أثمر عنده (حديث القمر) ذلك الكتاب الفريد .» [٤] .

طفولة قلب :

لما صدر الكتاب عام ١٩١٢م كان الرافعي في ميعة الصبا والشباب أي في الثانية والثلاثين من عمره، وهو كتابه الأول في الحب، لكن الرافعي لم يتغير مذهبه في الحب حتى كتبه الأخيرة مثل «أوراق الورد» : صدق في العاطفة وسمو في المشاعر والتعبير «كان الرافعي في كتابه أوراق الورد شاعراً خيالياً فيلسوف النزعة، عذريّ الهوى، ينسج في الحب حلّة أثيرية، وإن حبه غريب الوجود، بل نادر ..» [٥] . ولما كان الرافعي متمثلاً للإسلام فالتصور الإسلامي للمرأة، كان مذهبه في الحب ومعلماً من معالم العاطفة في الأدب الإسلامي المعاصر، وصورة معبرة عن التصور الإسلامي للتعبير عن الحب في الأدب الإسلامي أيضاً . وهذا وجه آخر من وجوه الأهمية في دراسة كتبه الوجدانية الأربعة .

التربية الأدبية :

لا تفوتنا أيضاً نظرته التجديدية للتربية الأدبية، أي من خلال التذوق ومدارسة النماذج البيانية، وليس من خلال «التلقين» أو الطريقة التقليدية لتدريس البلاغة، فيقول : «كل علوم البلاغة إنما تدور على شرح أمثلة بليغة وغير بليغة . فما من كاتب يحاول أن يستفيد تصورَه من هذه العلوم على أن ينزلها في ذلك منزلة الأصول والضوابط إلا انتهى إلى ملكة علمية، تتصل منه بعقل جامد، كأنه غلاف لفظي، نسجته القواعد والأمثال، فإلى أن يعقد الموتُ لسانه لا تكون قيمة عمره قد أربَت في البلاغة على ثمن كتاب من كتب علوم البلاغة ... ولا غرو فإن من ضلال العقل أن يعمل المرء لمقدّمات متسلسلة يُنتج بعضها بعضاً وليس لمجموعها نتيجة» [٦] .

ذلك لأن البلاغة ليست في القواعد، وإنما في المشاعر والأشكال التعبيرية التي استنبطت منها القواعد : «..علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته، ولا توضع قواعده، لأن هذه القواعد في جملتها إلهام ينتهي إلى الإحساس، وإحساس ينتهي إلى الذوق، وذوق يفيض الإحساسَ والإلهام على الكتابة جميعاً، فيترك فيها حياة كحياة

الجمال، لا تداخلُ الروح حتى تستبدّ بها، ولا تتصل بالقلب حتى تستحوذ عليه، فتكون له كأنها فكره في ذاته» [٧] .

وما لم يصرح به، لكن عبر عنه بلسان الحال، هو اختيار الموضوعات والأغراض الغزلية جسراً لعرض النماذج والأساليب الأدبية البليغة، التي يؤمل منها وبها صقل المواهب الأدبية، لأن ناشئة الأدب عادة ما يكونون في أعمار الشباب، ومشاعرهم نحو الأنثى في غاية من الحساسية والإرهاف للتلقي والعطاء بأن . فهل الحال العاطفية التي كان عليها الكاتب آنذاك وراء هذا التصور، أم التصور الناضج لديه حول الإنسان عامة، وحول مكان المرأة من كيان هذا الإنسان ذكراً كان أم أنثى، أم الأمران معاً، يقول: «كتبتها وأنا آمل أن تكون الطبيعة قد ألقت في معانيها بذوراً من عناصر التحول الأخلاقي تزكو في هذه القلوب الحيوانية التي لو نُقلت إلى جوانح البهائم لعاشت بها ... وهذه النفوس تذل لأحقرِ مَن في الأرض ولا تثور إلا على السماء، وهذه العقول التي تحاول أن تكتب للروح تاريخاً أرضياً يبتدىء وينتهي في التراب فتكون الحقيقة الإلهية التي يدركها الإنسان بسبيل من الوهم الإنساني الذي لا يدرك الحقيقة ...» [٨] .

ويتألف الكتاب من تسعة فصول، بتعبير المؤلف، ومن مقدمة حول «غرض الكتاب» . كل فصل من هذه الفصول يدور حول محور واحد رئيس، تتضام كلها لتنضوي تحت عنوان واحد هو المرأة، أو الجانب العاطفي من العلاقة بين الرجل والمرأة : الحب . وذلك كله من خلال حب الرافعي نفسه وتصوراته الفكرية والفلسفية حول هذا الحب . ويمكن أن نسمي المحاور في كل فصل على التسلسل التالي : «البكاء والدموع في الحب، العواطف، الفقر، الشعر والشعراء، الإيمان والإلحاد، جمال الطبيعة، أهمية الألم، الحب الحقيقي، الصداقة والحب» .

● الحب عند الرافعي في الفكر لا في الحس، وهو مدعاة للسمو لا للتسفل ، وشتان بين حب الرافعي الذي يرفع وبين الحب الذي يضع.

قد يلحظ القارىء العلاقة الواضحة بين معظم المحاور والموضوع الرئيس أو عنوان الكتاب «حديث القمر»، لكنه يستغرب علاقة موضوع مثل «الإيمان والإلحاد» مثلا بهما . إن الجواب في تصور الرافعي للإنسان وعلاقته بالوجود وبخالق هذا الوجود سبحانه وتعالى، فلا انفصام بين مشاعر الإنسان الفطرية، مثل مشاعر الحب عامة والإيمان خاصة . يقول :«كتبتها وأنا أرجو أن تكون الطبيعة قد أوحت إليَّ بقطعة من مناجاة الأنبياء التي كانت تستهلّ في سكون الليل فيَعيها كأنه ذاكرة الدهر، وأن تكون بثت في ألفاظي صدى تلك النغمات الأولى التي كان يتغنى بها أطفال الإنسانية فتخرج نغمات من أفواههم ممزوجة بحلاوة الإيمان الفطري» ويضيف: «فالبلغاء هم أرواح الأديان والشرائع والعادات، وهم ألسنة السماء والأرض، وإذا شهد عصر من العصور أمةً ليس فيها بليغ فذلك هو العصر الذي يكون تاريخاً صحيحاً لأضعف طبائع الأمم » [٩] .

فالحديث الرئيس عن البكاء والدموع استتبع بالتداعي النفسي الحديث عن الجمال في الحبيبة وفي العاشق، هذا أولاً.

والحديث ثانياً عن جمال العاشق استدعى استجلاب المثل من المرأة والضبع التي رأت جمالها في المرآة، وهذه على طريقة القرآن الكريم في ضرب الأمثلة واستثمار المثل في توضيح المراد

والممثل له، وقد صُنفت كتب عدة في أمثال القرآن معروفة [١٠] وثالثاً يعكس النص جانباً من قضية المرأة، أي صورتها أو علاقتها بالرجل الذي يحبها مثلا، وهل هو شريف نظيف أم عاشق أخرق كالضبع التي نظرت في المرآة .

ورابعاً يحدد صفات العاشق الأخرق خرق الضبع عقلاً وحساً «الذي يحب حواسه فتجوع روحه وتشبع وتعتل بالتخمة أيضاً ...» .

ولعمري أجاد الرافعي التمثيل والتحليل والتصوير، كما أقنع العقل في الوقت نفسه . وعلى هذا النسق تحدث في الفقرة الأولى من هذه الفقرات عن محاسن الحبيبة الجسدية ولكن بلغة سماوية فقال: «.. ورآها في جملة الجمال تمثال الفن الإلهيّ الخالد الذي يُدرَس بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمّس ...فذلك الذي يشعر بحقيقة الحب» .

الحب عند الرافعي في الفكر لا في الحس وإن انطلق منه، وهو مدعاة للسمو لا للتسفل . وشتان شتان بين حب الرافعي الذي يرفع والحبِّ الذي يضع . وفي زعمنا هذا هو الفرق بين تصور الرافعي الإسلامي لقضية المرأة وتصور الجاهليات القديمة والحديثة لها .

فالقمر هو الحبيبة، والحبيبة هي المرأة، والمرأة هي الشرق، والشرق مريض بسبب ظلم المرأة .

الرافعي .. وقصيدة النثر:

لم يكن حديث الرافعي في هذا الكتاب عن البلاغة أولاً وعن الشعر والشعراء ثانياً عبثاً، بل تأصيل في سياقه الذي يكتب فيه عن المرأة والجانب العاطفي من قضيتها، هذا الحديث الذي

لا ينفصل عن البلاغة والشعر في يوم من الأيام . ولا يقف الانفعال الشعري عند الكتابة النثرية ذات الأخيلة المحلقة والإيقاعات الموسقة، بل يتضمن الفصل الثامن قصيدة شعرية على أبحر الخليل والقافية الموحدة تعد ثلاثة وأربعين بيتاً، عنوانها «الشرق المريض» . الفصل يحتل سبع عشرة صفحة، ثلثها صفحات القصيدة الشعرية، والبقية النثر الشعري الذي رأينا أمثلة منه . يقول :

وأراه في كلّ زهرة تفوح
وفي كلّ نجم يلوح،
وفي هذا القمر كأنه طلعة حبيبة الروح [١١] .

هذه القصيدة «الشرق المريض» صورة مكثفة لكتاب «حديث القمر» أو لقضية الكتاب التي هي قضية المرأة، التي هي أيضاً قضية الشرق في الوقت نفسه . ولذلك زعمنا أن قضية المرأة في أدب الرافعي لم تعط حقها، لأنها أكبر من حجاب أو سفور أو تعليم أو اختلاط . وليس الفرق بين هذه القصيدة وبين أي فصل من فصول الكتاب إلا الوزن العروضي، ومتى كان العروض هو الفيصل بين الشعر والنثر إلا عند القواعد البلاغية الآلية الجامدة التي عرّض بها الرافعي في هذا الكتاب نفسه .

الفصل الرابع كله يدور حول الشعر والشعراء، وجوهر الشعر عند الرافعي ليس في العروض والأوزان، بل في الأحاسيس والمعاني والأخيلة والأفكار إذا كانت سامية أو محرضة على السمو فنياً، وإلا كانت زيفاً أو سقط المتاع : «الشاعر الصحيح رجل الكمال السماوي، لأن الشعر إذا لم يكن مع الشرائع كان عليها، وفي

ذلك فساد كبير، والشعراء أنفسهم كالشرائع تكون لمن يشاء أن تكون له، وهم يحكمون النفوس بالحب، والشرائع تحكمها بالرهبة، ولولاهم ما أعطي الناس قوة فهم التعزية فلم يكن لهم أن يطمئنوا لدين من الأديان»، «لا كهذا الشعر البارد الثقيل الذي تفرغه .. أفواه بعض شعرائنا المشهورين ... شعراء !! وشعراء الشرق ! ! نعم ونعيم وعَين : وعند الزنوج جماعة يحسنون الرقص على نقر الطبول هم شعراؤهم، بل شعراء العقول الذاهلة والأحلام الطائشة، بل شعراء الوحشية التي تكتب بأسنانها وأظافرها» [١٢] .

بدر شاكر السياب

ويبلغ الأمر بالرافعي مستوى منح الشاعر قبسا من النبوة، وهذا المذهب ليس شطحة بيانية عند الرافعي، بل هي جزء من تصوره للشعر والشعراء ودورهم في الحياة . وهذا التصور لشعراء «الرؤيا» كما يسمون في الأدب الغربي ويسمي الشعراء المحدثون أنفسهم بدءاً بأدونيس وانتهاء ببدر شاكر السياب أو العكس، هو نفسه تصور الرافعي الأديب الشاعر، بل مبدع قصيدة النثر التي لم يدّعها بهذا المصطلح لنفسه وادّعاها آخرون .

ومن غير شطح أو مبالغة أزعم أن أدونيس وكثيرين من شعراء ما يسمى بـ قصيدة النثر قد تتلمذوا في مدرسة الرافعي ولا يعترفون بذلك . وبوسعنا أن نجمل الملامح الأدونيسية المتأثرة بملامح الرافعي أولاً بنبوة الشعر أو ما يسمى رؤيا الشعر، مع اختلاف بين نبوة مؤمنة ونبوة وثنية أو ملحدة، وثانياً قصيدة النثر التي كتبت بها كتب الرافعي الوجدانيات الأربعة التي نحن بصددها، وقال فيها مصطفى نعمان البدري: «يكاد المرء يحس بوزن خاص في المقالة البيانية، ولا سيما الرافعية منها، لم يتهيأ له خليل آخر كالفراهيدي يكتشف له عروضه وأوزانه»[١٣]، ثم تجلت بوضوح أكبر في «نشيد اليمامة» الذي أدرجه في «وحي القلم» يقول فيه :

«على فسطاط الأمير يمامة جاثمة
تحتضن بيضها
يمامة سعيدة ستكون في التاريخ
كهدهد سليمان،
نُسِب الهدهد إلى سليمان
وستُنسَبُ اليمامة إلى عمرو .
واهاً لك يا عمرو : ما ضرّ لو عرفتَ
اليمامة الأخرى ؟!»[١٤] .

وبالمناسبة نوضح تعارضاً ظنه مصطفى نعمان البدري في موقف الرافعي من الشعر المنثور الذي قال فيه : «إنه تسمية تدل على جهل واضعيها» وبين تجربته نفسه في القصيدة النثرية [١٥]، فنزعم أن الرافعي رفض المصطلح خوفاً من أن يحل الشكل الجديد محل الشكل الشعري الخليلي على أنه الشعر والآخر ليس بشعر، وهذا لم يمنعه من كتابة الشعر المنثور لأنه مجدد يؤمن بالتعدد في الفن، ويرفض التحزب للشكل الواحد .

أما آخر ملمح فني يلحق أدونيس بالرافعي نشير إليه، فهو الشغف بالتلاعب الأسلوبي، أي تقليب المعنى الواحد بتقليب ألفاظه، أو اشتقاق معنى آخر من الألفاظ نفسها بتغيير سياقها أو علاقاتها، من مثل قول الرافعي : «يبكي صابراً ويصبر باكياً»[١٦] وقوله : «الجمال الغض الذي يرخص في شرائه القلب حين ترخص في شراء القلب الحياة» [١٧] وقوله «آه يا قمري الحبيب، بل يا حبيبي القمر» «فلا أنظر إلى خلقة المعاني ولكن أنظر إلى تركيبها الخلقي» [١٨] .

الظاهرة الأسلوبية نفسها تواجهنا في أعمال أدونيس، ففي كتابه «النص القرآني وآفاق

الكتابة» [١٩] نلحظ الأمثلة التالية «أبدية المعنى ومعنى الأبدية» [٢٠] «أصبحت القصيدة أشبه بمسرح كليّ لكلية اللغات والأشياء» [٢١] «الكلمات قربها البعيد جداً، وبعدها القريب جداً»[٢٢] «من يدافع بقوة عن حق الاختلاف، لا بدّ من أن يدافع بقوة أيضاً عن حق الانتماء» [٢٣] «حتى الذكرى السياسية، حتى ذكر المؤسسات»[٢٤] . أما سمتا الغموض والتفلسف في الشعر فأتردد في نسبتهما إلى الرافعي أو إلى معادلة أدونيس الشخصية والاجتماعية .

أدونيس

قضية المرأة أو الشرق المريض :

القمر هو الحبيبة ليلى، وليلى هي المرأة الشرقية، والمرأة الشرقية هي الشرق لأهميتها فيه، والشرق مريض لأن ليلى مريضة أو مظلومة . تلك هي المعادلة التي تجمل الكتاب كله، كما تجمل قصيدة «الشرق المريض» فيه .

هناك خيط فني بين ليلى مجنون بني عامر، وليلى المريضة في العراق لزكي مبارك، وليلى مصطفى صادق الرافعي في الوقت نفسه . فليلى رمز وحقيقة بآن . وبوسعك أن تلحق ليلى مفترضة لقاسم أمين إن شئت أيضا . وأيكم ليست له ليلى !؟

في مطلع القصيدة «الشرق المريض» مقطع من ستة أبيات يضاف إليها ثلاثة أخرى من المقطع الثاني يتحدث الشاعر عن مريض في ليله ونهاره يعاني، وكبده تؤزّه بين الأضلع كالنار، وهو ناعس أو مخدر، يحفر له قبره أمام عينيه، حتى تظن أنه يعني نفسه أو شاعراً مثله، والالتباس مطلوب . ثم يصرح في البيت العاشر حتى آخر القصيدة أنه يعني بالمريض «الشرق» . وبوسعك أن تترجم الشرق إلى «العالم الإسلامي» المزجى بين أعوانه الأشرار اليائسين العاجزين، الذين يبادرون به الموت قبل أوانه، من شدة اليأس والإذعان، اللذين لا ضروة لهما، يتمنون الأماني بلا عمل يقدمونه، إيماناً منهم بمعجزات سخيفة يفترونها على الإيمان الحقيقي .

ثم ينتقل إلى تشخيص المصيبة التي ألمت بهذا الشرق، وهي معضلة نَحْسٍ معقدة ملتوية أشبه ما تكون «بامرأة مصبوغة من جهالات بألوان» . وطريقته في هذا التشبيه إرهاص فني للانتقال إلى المرأة الدواء لهذا المدنف العاني : حيث يأخذ بالحديث عن امرأة ممرضة «حقيقية أو مجازية» تداوي الشرق بإحساس ووجدان، بل بالروح، «لأن أقتل داء الشرق روحاني»، فهي تذكره بعهد الملائكة، وحنان الأنبياء، ونبات الفضائل من القلب، أو الحديث عن«الأمّ» التي هي دواء الشرق من ذله وهوانه، ترفع الدنيا وتخفضها بطفلها الذي يعدل الدنيا بأسرها، تلك المرأة الفاضلة أشبه بالسماء التي ترسل الملائكة لا الشياطين، وليس كالمرآة المطروحة في بيت للعميان الذين لا يرون جمالها ولا يقدرونها قدرها .

السبب في هذا البلاء هو الرجال، لكن العقاب نازل بالنساء ألماً وشجناً، كمثل العين المتألمة، ومرضها في جزء منها هو الأجفان .

● لما كان الرافعي متمثلا للإسلام فإن نظرته إلى المرأة جاءت وفق التصور الإسلامي .

في المقطع الرابع يتلهف على حال المرأة، مكرراً لفظ «لهفي» في بداية الأبيات الثلاثة الأولى منه، يتلهف على معاملتها لحسنها المادي كالجوهرة في عقد حسناء أو تاج سلطان مرة، أو ريحانة خضراء تقطع من أصلها لتذبل على يد سكّير ثانية، أو غانية عذراء وضعت في غير موضعها بين الأسواء والأضغان ثالثةً، وهي كنايات عن تزويج الفتاة من غير من تحبه أو تختاره أو يناسبها أو لأغراض لم تخلق لها أصلاً .

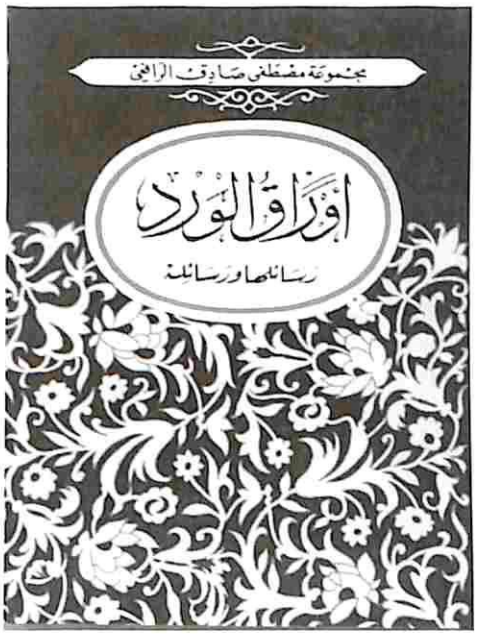

لذلك يوضح في أربعة الأبيات التالية أهمية التناسب بين الزوجين من حب ورضى :

لكل معنى جميل ما يلائمه
كما تمازج ألحان بألحان
وليس يُطرب صوت الماء منحدراً
كما نرى وقعه في سمع ظمآن
فيا إلهي إذا أجريت في قدر
يوماً بأن يلتقي في الناس ضدّان
فاجعل للطفك معنى في التقائهما
كيلا يكون من الضدّين زوجان

ويوضح المأساة إذا كانت المعادلة بين الرجل والمرأة مختلة : فالرجل الذي ينال المرأة بطغيان : أي وهي تبغضه لأمر ما .. هو حقد مدمر لا مثيل له، وعلى العكس : إن الذل الذي يعاني منه الرجل من امرأة سوء أيضاً لا مثيل له .

الخاتمة في ثلاثة أبيات تدور حول ضرورة الحب للزواج، وضرورة التناسب بين الزوجين، لأن الزواج بناء للحياة التي تشبه القصر، والحب والتناسب أركان أساسية في هذا البنيان، وبهما تتحقق السعادة والهناءة .

هل نفهم من هذه القصيدة أن الشاعر يتحدث عن تجربة ذاتية، عن «ليلى» حبيبته الحقيقية، وقد زوّجت من غير حبيبها الشاعر، وهي مأساة معروفة في شرقنا المريض ؟

في مواضع أخرى كثيرة مؤشرات على ما نذهب إليه، فالفصل الثالث حديث عن الغنى والفقر، يتعصب فيه المؤلف للفقير على الغني، وفي الفصل الثامن يحمل المؤلف بشدة على الغني الجلف الذي يشتري الحسناء بالمال «ويأتي هذا الرجل – ولا يكون إلا غنياً – وقد أدلّ بنفسه وأشرق وجهه كأن فيه كل معاني ذهبه وفضته، وإن كان هذا الوجه الجلديّ كأنه بعض ما خلق من أحذية الرذيلة ... فيريد أن يتسفهه الجمال عن ماله وثروته، ويريد أن يشتري الحسناء الجميلة التي خلقت للحب لا للبيع ... اشتراها من فقرها بماله، ومن تعاستها بقبحه ...فإن الله يأبى أن يجعل في الأرض أو في السماء قوة تجعل الحسان الجميلات يشعرن من الغلظة والفظاظة بما يشعر به أولئك البهائم، رحمة لهذا الجمال!» [٢٥] .

ويضيف «أيوثق فؤاد الحسناء بالسلسلة الرَّبوض التي صيغت من كلمات الزواج ثم يشد طرفها في يد الرجل الذي تكرهه أو ستكرهه شخص البغض ويقال مع ذلك إنهما ارتبطا برباط مقدس ...سوأةً لك، أيعيد التاريخ نفسه وتكون أنت الصنم الذي تقرب له الذبيحة وعيناه جامدتان تبعثان الرعب والخوف ....عزاءً أيتها الجميلة ...عزاءً أيتها الجميلة ...عزاءً عزاءً»[٢٦] . إلى أن يقول : «..ولا يعلمون (الكتاب والأدباء والمصلحون) أن التاريخ الإنساني وإن لم يكن نسائياً غير أن المرأة هي التي تلده وترضعه بأخلاقها حتى يتماسك ويدرج ثم يذهب يافعاً، وإن العظمة التاريخية وإن

كانت مترجلة إلا أن في باطنها دائماً روحَ أنثى، حتى إنها أعظم ما تكون إذا همَّت همها لشيء من آمال هذه الروح»[٢٧] .

ما نظننا بحاجة للبرهنة على أن مذهب الرافعي في المرأة عامة وفي الحب من التصون والعفة والنزاهة خاصة .. مذهب إسلامي، وأن يؤلف أربعة كتب توقع على الألحان نفسها لأمر يلفت النظر، ويستدعي الانتباه، في عصر تشابهت فيه الأمور والتبست على كثيرين . المرأة هي الشرق، والشرق مريض، تلك هي المسألة . أما جوهر المسألة فهو قلب المرأة، وليس حجابها وتعليمها واختلاطها إلا بعضاً من كل، وبعضاً أقل أهمية من هذا«البعض» الذي بين الصدور .

ما بعد الجملة القرآنية..الأمثال:

سوف نتجاوز الحديث عن الخصائص الأسلوبية عند الرافعي مثل ما عرف عنه من التأثر بالجملة القرآنية[٢٨] مفرداتٍ وصيغة، ودفاعه عنها عربية وفصاحة، ومثل الغموض أُخذ عليه في كتابه «حديث القمر»، ثم تخفف منه في كتابه الرابع «أوراق الورد» [٢٩]، ومثل تصنيف النقاد فصوله وفصول الكتب الثلاثة الأخرى في «المقالة البيانية»، وهي : «مقالة أدبية متميزة، تتخذ الفكرة أساساً، وتدير الأسلوب صياغة بيانية مثيلة من حول الفكرة، وتجعل الفن والجمال والإشراق بالعبارة وانتقاء الكلمات وسيلة، تشرق فيها المقالة، فتشف عن الأصالة»[٣٠]، لأن الدراسات السابقة أفاضت الحديث عن هذه الجوانب، فباتت مشهورة . وسوف نعنى بمسألتين، إحداهما لم تلق العناية، وهي ضرب الرافعي «الأمثال» على طريقة القرآن الكريم، والثانية تصوره لقضية المرأة والحب .

والمثل اصطلاحاً : قول سائر، يُشَبَّهُ به حالُ الثاني بحال الأول . والعلاقة بين الحالين، أن الحالة الأولى هي التي يُضرب بها المثل في الأصل، والحالة الثانية : هي التي يُذكر فيها المثل مرة أخرى . والعلاقة الحاصلة بين الحالين، هو الشبه الحاصل بين الحالة الأولى، وبين الحالة الثانية [٣١] .

وهذا يقتضينا التذكير بأنواع المثل الثلاثة :

النوع الأول : وهو المثل الموجز السائر، حِكَمياً وغير حِكَميّ .

النوع الثاني : المثل التشبيهي أو التمثيلي .

النوع الثالث : القصصي [٣٢] .

لقد اشتمل الكتاب على الأنواع الثلاثة، النوع الأول منها سماه مصطفى نعمان البدري بـ«الآبدة» : «هي الحكمة المرسلة في المثل، بجوامع الكلم التي يكون منها خلاصة التجربة في الحياة ...حفل بها «حديث القمر» فأشرق بالعربية على معانيها»[٣٣] من مثل قول المؤلف : «ربَّ دقيقة واحدة من حياة رجل تُبذل في ثمنها حياة بتمامها من رجل أو رجال»[٣٤] «العبودية للحب الصحيح هي مبدأ العبودية الصحيحة لله» [٣٥] «السعادة طفولة القلب»[٣٦] «ولعمري ماذا ينفعك أن تمشي وراء الملك لتقيس خطواته»[٣٧] .

النوع الثاني : المثل التشبيهي أو التمثيلي صادفنا منه أكثر من خمسة عشر مثلاً، بعضها مقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف أو مُشابه أمثلتهما شبهاً كبيراً، من مثل قوله : «العلم الذي لا يخلق ذبابة ولا أحقر من ذبابة، فيتفلسف ويقول لنا: كيف خلقت؟»[٣٨] «السفينة لا تزال تجري بمجدافيها ما اتجها في الحركة إلى جهة واحدة، فإذا اختلفا وتدابرا في هذه الحركة التوت السفينة أولاً واضطربت ثانياً وانقلبت آخراً، وهل الرجل والمرأة إلا مجدافان في زورق البيت (العائلة) الذي يعبر بهما نهر

الحياة !» [٣٩] . أما بعضها الآخر فمبتكر جميل فيه من البراعة والذكاء وتسديد الرمية ما يعجب ويدهش، نختار منها: «إن الذباب ليقع على الزهر كما يقع النحل ليجني العسل، وإنه ليطِنّ في الروض كما تغرد الطيور لترقيص قلوبها الصغيرة، ثم يطير عن الزهرة ذباباً كما وقع ويسكت ذباباً كما طنّ، وكيفما نظرت إليه تراه ذباباً، ولكنه من الطير، ولكنهم من الشعراء» [٤٠] . نحسب أنك لم تفتك النكتة الصدمة المفاجئة «ولكنهم من الشعراء»، وهي مزية أسلوبية تشكل ظاهرة في أسلوب الرافعي حين يمهد أو يطيل التمهيد للغرض الفني أو الفكري الذي يرمي إليه، نكتفي بهذه الإشارة العابرة، وهي المزية التي أورثته غموضاً عند بعض المتلقين . ومثل قوله : «لا تنسل أيها المسكين المحزون ريش جناحيك اللذين تطير بهما لتنظر لون ما تحته من الجلد فتترك نفسك بلا إيمان وتدع قلبك بلا توكّل وتسقط آخر الأمر مع هؤلاء الذين لا يرتفعون عن الأرض في طيرانهم نحو السماء إلا مقدار ما يرتفع غبار الأرجل في طريق السابلة» [٤١] .

النوع الثالث : المثل القصصي، نصادف اثنين منه، أحدهما أسطوري، سبق أن أشرنا إليه في قصة الضبع التي صادفت مرآة صقيلة جميلة نسيتها صاحبتها، فنظرت فيها فوجدت قبح وجهها، فاتهمت المرآة بالقبح ولم تعترف بقبح نفسها، ولعل هذا المثل مستمدّ من مثل عربي قديم «لشرّ ما اطّرحكِ أهلُكِ» [٤٢]. ثانيهما قصة مستمدة من تجربة المؤلف الشخصية «أعرف رجلاً كأنه نَزعَة شك بين أهل العزائم ....ورآني صامتًا كأنما تبعثرت نفسي فمرّ في هذيانه عجلاً غير رائث، ...كأنه ليس في

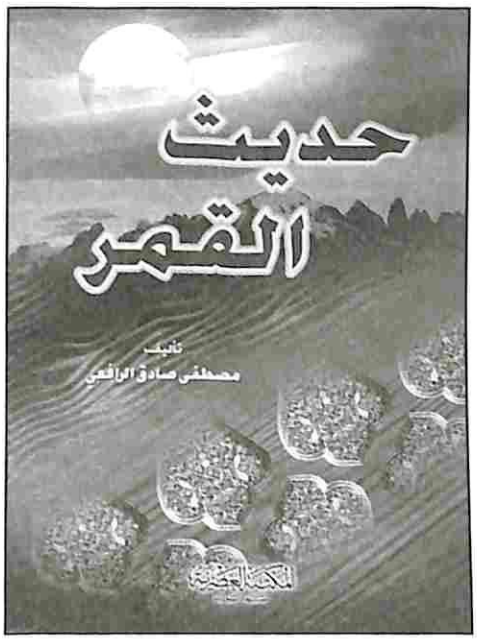

الأرض محبّ غيري فليس فيها عاذل غيره، وأنا في كل ذلك أصعّد فيه وأصوب فلا تأخذ منه عيني إلا رجلاً موضوعاً في جلده وثيابه كما يُطمر لوح الثلج في اللفائف والقشور» [٤٣] .

المرأة :

في تصور الرافعي : المرأة هي الشرق، والشرق مريض بمرضها، ومرضها من ظلم الرجل لها، ومن ظلمه لها طغيانه عليها بسلبها الإرادة وحق الاختيار والزواج ممن تحب ورفض من تكره، فلو أتيح لها أن تحنو على قلوب المشرقيين بحنانها، أو تربي أولادها التربية الحقيقية لشفي الشرق من بلائه، وعمرت الحياة بقصور كقصور الجنة والحور العين .

وعلاقة الرجل بالمرأة علاقة قلب وروح وعقل، لا علاقة جسد وحسب، وهي علاقة تبادلية، وليست من طرف واحد، وإلا فهي ليست علاقة، بل استبداد وجلافة وغلظة ورباط غير مقدس . هذه العلاقة تنشىء السعادة إذا اتصلت، وتنشىء التعاسة إذا انقطعت . هذه العلاقة تصقل النفس وترتفع بها إلى السماوات، وبالشعراء إلى الإبداع وبالإنسان إلى الإيمان، وهي التي تميز الإنسان من الحيوان . والحب هو إكسير هذه العلاقة، وليس المال أو الجاه أو القشور الأخرى، وهو ليس حب الجمال الذي يذوي أو الشهوة التي تجوع أو تشبع وتتخم، بل حبّ الجمال الإلهي في النفس والروح والفكر، وفي العفة والتصوُّن والنزاهة تابعاً أو نابعاً من محاسن الطبيعة أو الفطرة، يقول مثلاً : «ولو فهم الناس الحبّ على حقّه لاستجدّوا لأنفسهم عقولاً، فإن الطبيعة نفسها متى أرادت أن تجدد إنساناً لتبعث منه رجلاً من رجالها، شاعراً

أو حكيماً أو بطلاً، تجلت على نفسه وآماله في صورة إحدى الحسان وتركته محباً، فلا تكون آلام الحب وآماله في باطنه إلا تغييراً نفسياً كأنه على ذلك إنما يُهدَم ويُبنى» (٤٤) .

ومع ذلك نزعم أن قضية المرأة في أدب الرافعي عامة، وكتبه الوجدانية الأربعة خاصة - وبينها حديث القمر - لا توفّيها حقها إلا رسالة جامعية لا مقالة واحدة .■

الهوامش:

(١) الرافعي بين المحافظة والتجديد ، مصطفى نعمان البدري ، دار الجيل ، بيروت ، دار عمار ، الأردن ، ط١ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م ، ٤٠١و٤٠٢ .
(٢) حديث القمر - مصطفى صادق الرافعي - كتاب المعارف - سوسة: تونس ١٩٨٨م - ص : ٦ .
(٣) المرجع السابق : ٥ .
(٤) الرافعي بين المحافظة والتجديد : ١١٤ .
(٥) المرجع السابق : ٤٠٠ .
(٦) حديث القمر : ٧ .
(٧) المرجع السابق : ٦و٧ .
(٨) نفسه : ٦ .
(٩) نفسه : ٥ و٨ .
(١٠) وضع العلماء الأقدمون كتباً في أمثال القرآن، ذكر منها محقق كتاب (أمثال القرآن لابن القيم) تسعة مؤلفات، وفي مؤلفات الحديث الشريف وضعت مصنفات أخرى . من الكتب الحديثة: الأمثال في القرآن .
(١١) حديث القمر : ٧٦و٧٧ .
(١٢) المرجع السابق : ٤٥و٤٦ .
(١٣) الرافعي بين المحافظة والتجديد : ١٩٦ .
(١٤) المرجع السابق : ٣٢٨ : نقلاً عن الرسالة ٩٣، وحي القلم : ١ ٢٨ .
(١٥) الرافعي بين المحافظة والتجديد : ٣٢٧ .
(١٦) حديث القمر : ١٣ .
(١٧) المرجع السابق : ١٠٦ .
(١٨) نفسه : ١١٤ .
(١٩) النص القرآني وأفاق الكتابة - أدونيس - دار الآداب - لبنان - ط١ : ١٩٩٣ .
(٢٠) المرجع السابق : ١١٩ .
(٢١) نفسه : ١٢٣ .
(٢٢) نفسه : ١٢٥ .
(٢٣) نفسه : ١٢٧ .
(٢٤) نفسه : ١٤٨ .
(٢٥) حديث القمر : ١٠٠و١٠١ .
(٢٦) نفسه : ١٠٣ - ١٠٤ .
(٢٧) نفسه : ١٠٧و١٠٨ .
(٢٨) الرافعي بين التجديد والمحافظة : ٣٧٧ .
(٢٩) المرجع السابق : ٣٩٩ .
(٣٠) نفسه : ١٩٤ .
(٣١) أمثال القرآن - ابن قيم الجوزية - دراسة وتحقيق: الدكتور موسى بناي علوان العليلي - مكتبة القدس - ط١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م - ص ١٠ .
(٣٢) الأمثال في القرآن - الدكتور محمد جابر الفياض - دار الشؤون الثقافية العامة - ط١ : ١٩٨٨ - ص٤٨٨م .
(٣٣) الرافعي بين المحافظة والتجديد: ٢٩٦ .
(٣) حديث القمر : ٢١ .
(٣٥) المرجع السابق : ٢٩ .
(٣٦) نفسه : ٣٣ .
(٣٧) نفسه : ٤١ .
(٣٨) نفسه : ٥٧و٥٨ .
(٣٩) نفسه: ١٠٨ .
(٤٠) نفسه : ص٤٧ .
(٤١) نفسه : ٩٦ .
(٤٢) نفسه، ١٦و١٧ .
(٤٣) نفسه، ١٢٢ .
(٤٤) نفسه، ١٢٢ .

أراك - وأنت نبت اليوم - تمشي ... بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوءة في المعاني ... وما دانيت حد الأربعينا
فزن تاج الرئاسة بعد (سامي) ... كما زانت فرائده الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصا ... على ملك القريض وكن أمينا
فحسبك أن مطريك (ابن هاني) ... وأنك قد غدوت له قرينا

حافظ إبراهيم *

* في تقريظ ديوان مصطفى صادق الرافعي.